الخوف حقيقته

وبيان درجته

للإمام
ابن قدامة المقدسي

مصدر هذه المادة:



دار القاسم

بسم الله الرحمن الرحيم

حقيقة الخوف

الحمد لله رب العــــــالمين، إله الأولين والآخرين، قيوم السموات والأرض، ورحمن الدنيا والدين، أشهد أن لا إله إلا الله وحــده لا شــريك له ، وأشــهد أن محمــدًا عبــده ورسوله، أما بعد:

اعلم: أن الخوف عبـارة عن تـألم القلب واحتراقه بســــــبب توقع مكــــــروه في الاستقبال.

مثـال ذلـك، من جَـنى على مالك جنايـة، ثم وقع في يـده، فهو يخـاف القتـل، ويجوِّز العفـو، ولكن يكـون تـألم قلبه بحسب قـوة علمه بالأســـباب المفضـــية إلى قتلـــه، وتفـــاحش جنايتـــه، وتأثيرها عند الملـــك، وبحسب ضـعف الأسـباب يضـعف الخـوف. وقد يكـون الخـوف لا عن سـبب جنايـة، بل عن صــفة المخوَّف وعظمته وجلالــه، إذ قد علم أن الله ســبحانه لو أهلك العــالمين لم يبـــال، ولم يمنعه مـــانع، فبحسب معرفة الإنسـان بعيـوب نفسـه، وبجلال الله تعـالى

واستغنائه، وأنه لا يسأل عمل يفعل؛ يكـون خوفه.

وأخـوف النـاس أعـرفهم بنفسه وبربّـه، ولـذلك قـال النـبي صـلى الله عليه وسـلم: «**أنا أعـــرفكم باللـــه، وأشـــدكم له خشية**» [1].

وقــال تعــالى: ﴿**إِنَّمَا يَخْشَـى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَـاءُ**﴾ [فـاطر: 28]، وإذا كملت المعرفة، أثرت الخـوف، ففـاض أثـره على القلب، ثم ظهر على الجـــوارح والصـــفات بـالنحول والاصـفرار والبكـاء والغشـى، وقد يفضي إلى المـوت، وقد يصـعد إلى الـدماغ فيفسد العقل.

وأما ظهـور أثـره على الجـوارح، فبكفها عن المعاصي، وإلزامها الطاعات، تلافياً لما فرط، واستعداداً للمستقبل.

قال بعضهم: من خاف أدلج.

وقـال آخـر: ليس الخـائف من بَكى، إنما الخائف من ترك ما يقدر عليه.

ومن ثمـــــرات الخـــــوف، أنه يقمع الشهوات، ويكدر اللـذات، فتصـير المعاصي

---

1 (?) رواه البخاري (4776)، ومسلم (1401).

المحبوبة عنده مكروهة، كما يصير العسل مكروهاً عند من يشتهيه إذ علم أن فيه سمًّا، فتحترق الشهوات بالخوف، وتتأدب الجوارح، ويذل القلب ويستكين، ويفارقه الكبر والحقد والحسد، ويصير مستوعب الهم لخوفه، والنظر في خطر عاقبته، فلا يتفرغ لغيره، ولا يكون له شغل إلا المراقبة والمحاسبة، والمجاهدة، والضنة بالأنفاس واللحظات، ومؤاخذة النفس في الخطرات والخطوات والكلمات، ويكون حاله كحال من وقع في مخالب سبع ضار لا يدري أيغفل عنه فيفلت، أو يهجم عليه فيهلكه، ولا شغل له إلا ما وقع فيه، فقوة المراقبة والمحاسبة بحسب قوة الخوف، وقوة الخوف بحسب قوة المعرفة بجلال الله تعالى، وصفاته، وبعيوب النفس، وما بين يديها من الأخطار والأهوال.

وأقل درجات الخوف مما يظهر أثره في الأعمال، أن يمنع المحظورات، فإن منع ما يتطرق إليه إمكان التحريم، سمى ورعاً، وإن انضم إليه التجرد والاشتغال بذلك عن فضول العيش، فهو الصدق.

أقسام الخوف

اعلم: أن الخـــوف ســـوط الله تعـــالى يســـوق به عبـــاده إلى المواظبة على العلم والعمـــل، لينـــالوا بهما رتبة القـــرب من الله تعالى.

والخـــوف: له إفـــراط، وله اعتـــدال، وله قصور.

والمحمود من ذلك الاعتدال، وهو بمنزلة الســـوط للبهيمة فـــإن الأصـــلح للبهيمة أن لا تخلو عن ســـــــــــوط، وليس المبالغة في الضرب محمودة، ولا المتقاصر عن الخـــوف أيضاً محمودًا، وهو كالذي يخطر بالبـــال عند سماع آية، أو ســـبب هائـــل، فيـــورث البكـــاء، فـــإذا غـــاب ذلك الســـبب عن الحس، رجع القلب إلى الغفلـــة، فهو خـــوف قاصر قليل الجـــدوى، ضـــعيف النفـــع، وهو كالقضـــيب الضـــعيف الـــذي يضـــرب به دابة قوية فلا يؤلمها ألمـــاً مبرحـــاً، فلا يســـوقها إلى المقصـــد، ولا يصـــلح لرياضـــتها، وهـــذا هو الغـــالب على النـــاس كلهم، إلا العـــارفين والعلمـــاء، أعني العلمـــاء بالله وبآياتـــه، وقد عز وجـــودهم. وأما المرتســـمون برســـوم

العلم، فإنهم أبعد الناس عن الخوف.

وأما القسم الأول، وهو الخوف المفرط، فهو كالذي يقوى ويجاوز حد الاعتدال حتى يخرج إلى اليأس والقنوط، فهو أيضاً مذموم، لأنه يمنع من العمل، وقد يخرج إلى المرض والوله والموت، وليس ذلك محموداً، وكل ما يراد لأمر، فالمحمود منه ما يفضي إلى المراد المقصود منه، وما يقصر عنه أو يجاوزه، فهو مذموم.

وفائدة الخوف: الحذر، والورع، والتقوى، والمجاهدة، والفكر، والذكر، والتعبد، وسائر الأسباب التي توصل إلى الله تعالى، وكل ذلك يستدعى الحياة، مع صحة البدن وسلامة العقل، فإن قدح في ذلك شيء، كان مذموماً.

فإن قيل: فما تقول فيمن مات من الخوف؟

فالجواب: أنه ينال لموته على تلك الحال مرتبة لا ينالها لو مات من غير خوف، إلا أنه لو عاش وترقى إلى درجات المعارف والمعاملة، كان أفضل، فإن أفضل السعادة طول العمر في طاعة الله

تعـــــــــــالى، فكل ما أبطل العمر والعقل والصحة فهو نقصان وخسران.

مقامات الخائفين

اعلم: أن مقامــات الخــائفين تختلــف، فمنهم من يغلب على قلبه خــوف المــوت قبل التوبــة، ومنهم من يغلب عليه خـــوف الاســـتدراج بـــالنعم، أو خـــوف الميل عن الاســـتقامة، ومنهم من يغلب عليه خـــوف ســـوء الخاتمـــة. وأعلى من هـــذا خـــوف السـابقة؛ لأن الخاتمة فـرع السـابقة، والله تعالى يرفع من يشاء من غير وسيلة، ويضع من يشــاء من غــير وســيلة، لا يســأل عما يفعل.

وقد قـــال : **«هــــؤلاء في الجنة ولا أبالي ، وهؤلاء في النـار ولا أبـالي»**[1].

ومن أقســـام الخـــائفين، من يخـــاف ســكرات المــوت وشــدته، أو ســؤال منكر ونكــير، أو عــذاب القــبر، ومنهم من يخـاف هيبة الوقوف بين يدي الله تعالى، والخـوف من المناقشة والعبـــــور على الصـــــراط، والخـــوف من النـــار وأهوالهـــا، أو حرمـــان الجنة، أو الحجاب عن الله سبحانه وتعـالى،

---

[1] (?) رواه ابن سعد في الطبقات (7/135).

وكل هــذه الأســباب مكروهة في أنفســها، مخوفة.

فأعلاها رتبة خـــوف الحجـــاب عن الله تعـالى، وهو خـوف العـارفين، وما قبل ذلك خوف الزاهدين والعابدين.

فضيلة الخوف والرجاء
وما ينبغي أن يكون الغالب منهما

فضيلة كل شيء بقـدر إعانته على طلب السـعادة، وهى لقـاء الله تعـالى، والقـرب منـه، فكل ما أعـان على ذلك فهو فضـيلة.

قال الله تعالى: ﴿**وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ**﴾ [الرحمن: 46]. وقـال تعـالى: ﴿**رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ**﴾ [البينة: 8].

وفى الحديث عن النبي ﷺ أنه قـال: «**إذا اقشعر جلد العبد من مخافة الله عز وجل تحاتت عنه ذنوبه، كما يتحات عن الشجرة اليابسة ورقها**»[1].

وفى حديث آخر: «**لن يغضب الله على من كان فيه مخافة**»[2].

وقال النبي ﷺ: «**قال الله عز وجل: وعزتي وجلالي، لا أجمع على عبدي خوفين، ولا أجمع له أمنين، إن**

---

1 (?) قال الحافظ العراقي في تخريج الإحياء (4/9136): رواه البيهقي والطبراني من حديث العباس بسند ضعيف.

2 (?) أورده ابن الجوزي في الموضوعات (3/163).

أمنني في الدنيا، أخفته يوم القيامة، وإن خافني في الدنيا، أمنته يوم القيامة»[1].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: «**عينان لا تمسهما النار أبداً: عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله»[2].**

واعلم: **أن قول القائل:** أيما أفضل الخوف، أو الرجاء؟ كقوله: أيما أفضل الخبز أو الماء؟

وجوابه: أن يقال الخبز للجائع أفضل، والماء للعطشان أفضل، فإن اجتمعا، نظر إلى الأغلب، فإن استويا، فهما متساويان، والخوف والرجاء دواءان يداوى بهما القلوب، ففضلهما بحسب الداء الموجود، فإن كان الغالب على القلب الأمن من مكر الله، فالخوف أفضل، وكذلك إن كان الغالب على العبد المعصية، وإن كان

---

1 (?) رواه ابن حبان (639)، والبيهقي في شعب الإيمان.

2 (?) رواه الترمذي (1639)، وأبو نعيم (7/199).

الغـــالب عليه اليـــأس والقنـــوط، فالرجـــاء أفضـــل. ويجـــوز أن يقـــال مطلقـــاً: الخـــوف أفضـــــل، كما يقـــــال: الخـــــبز أفضل من الســـكنجبين[1]؛ لأن الخـــبز يعـــالج به مـــرض الجـــوع، والســـكنجبين يعـــالج به مـــرض الصـــفراء، ومـــرض الجـــوع أغلب وأكـــثر، فالحاجة إلى الخـــبز أكـــثر، فهو أفضل بهـــذا الاعتبار؛ لأن المعاصي والاغـــترار من الخلق أغلب.

وإن نظرنا إلى موضع الخـــوف والرجـــاء فالرجاء أفضل لأن الرجـــاء يســـتقى من بحر الرحمة، والخوف يستقى من بحر الغضب.

وإما المتقي، فالأفضل عنـــــده اعتـــــدال الخوف والرجاء، ولذلك قيل: لو وزن خوف المؤمن ورجاؤه، لاعتدلا.

قـــال بعض الســـلف: لو نـــودي: ليـــدخل الجنة كل الناس إلا رجلاً واحداً، لخشيت أن أكـــون أنا ذلك الرجـــل. ولو نـــودي: ليـــدخل النار كل الناس إلا رجلاً واحـــداً، لرجـــوت أن أكون أنا ذلك الرجل. وهـــذا ينبغي أن يكـــون

---

1 (?) السكنجبين : شراب مركب من حـامض وحلو ، انظر المعجم الوسيط.

مختصاً بالمؤمن المتقي.

فإن قيل: كيف اعتدال الخوف والرجاء في قلب المؤمن، وهو على قدم التقوى؟ فينبغي أن يكون رجاؤه أقوى.

فالجواب: أن المؤمن غير متيقن صحة عمله، فمثله مثل من بذر بذراً، ولم يجرب جنسه في أرض غريبة، والبذر الإيمان، وشروط صحته دقيقة، والأرض القلب، وخفايا خبثه وصفائه من النفاق، وخبايا الأخلاق غامضة، والصواعق أهوال سكرات الموت، وهناك تضطرب العقائد، وكل هذا يوجب الخوف عليه، وكيف لا يخاف المؤمن؟! وهذا عمر بن الخطاب يسأل حذيفة: هل أنا من المنافقين؟ وإنما خاف أن تلتبس حاله عليه، ويستتر عيبه عنه، فالخوف المحمود هو الذي يبعث على العمل، ويزعج القلب عن الركون إلى الدنيا.

وأما عند نزول الموت، فالأصلح للإنسان الرجاء، لأن الخوف كالسوط الباعث على العمل، وليس ثمة عمل، فلا يستفيد الخائف حينئذ إلا تقطيع نياط قلبه، والرجاء

في هذه الحال يقوي قلبه، ويحبب إليه ربه، فلا ينبغي لأحد أن يفـارق الـدنيا إلا محبًّا لله تعالى، محبًّا للقائه، حسن الظن به.

وقد قـال سـليمان الـتيمي عند المـوت لمن حضـره: حـدثني بـالرخص، لعلي ألقى الله، وأنا أحسن الظن به.

الدواء الذي يستجلب به الخوف

وذلك يحصل بطريقين:

أحـــدهما: أعلى من الآخـــر. مثاله أن الصبي إذا كان في بيت، فـدخل عليه سـبع، أو حيـة، ربما لم يخف منـه، وربما مد يـده إلى الحية ليأخذها يلعب بهـا، ولكن إذا كـان معه أبوه فهرب منها وخافها، هرب الصـبي، وخـــاف موافقة لأبيـــه، فخـــوف الأب عن معرفـة، وخـوف الولد من غـير معرفـة، بل هو تقليد لأبيه.

فإذا عرفت هـذا، فـاعلم أن الخـوف من الله تعالى على مقامين:

أحدهما: الخوف من عذابه، وهذا خوف عامة الخلـــق، وهو حاصل بالإيمـــان بالجنة والنـــــار، وكونها جـــــزاءين على الطاعة والمعصـية، ويضـعف هـذا الخـوف بسـبب ضعف الإيمان، أو قوة الغفلة.

وزوال الغفلة يحصل بالتـــذكر، والتفكر في عـــذاب الآخـــرة، ويزيد بـــالنظر إلى الخائفين ومجالستهم، أو سماع أخبارهم.

المقـــام الثـــاني: الخـــوف من الله تعـالى، وهو خـوف العلمـاء العـارفين. قـال

الله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ [آل عمران: 3].

وصفاته سبحانه تقتضي الهيبة والخوف، فهم يخافون البعد والحجاب.

قال ذو النون: خوف النار عند خوف الفراق، كقطرة في بحر، ولعامة الناس حظ من هذا الخوف، ولكن بمجرد التقليد، فهو يضاهى خوف الصبي من الحية، تقليداً لأبيه، فلذلك يضعف، فإن العقائد التقليدية ضعيفة في الغالب، إلا إذا قويت بمشاهدة أسبابها المولدة لها على الدوام، وبالمواظبة على مقتضاها في تكثير الطاعات، واجتناب المعاصي، فإذا ارتقى العبد إلى معرفة الله تعالى، خافه بالضرورة، ولا يحتاج إلى علاج يجلب الخوف إلى قلبه، بل يخاف بالضرورة. ومن قصر، فسبيله أن يعالج نفسه بسماع الأخبار والآثار، فيطالع أحوال الخائفين وأقوالهم، ويسبب عقولهم ومناصبهم إلى مناصب الراجين المغرورين، فلا يتمارى في أن الاقتداء لهم أولى، لأنهم الأنبياء والعلماء والأولياء.

وفى «صحيح مسلم» من حديث عائشة رضي الله عنها، قـالت: دعي رسـول الله إلى جنـــازة غلام من الأنصـــار. فقلت: يا رسـول اللـه، طـوبى لهـذا، عصـفور من عصافير الجنة، لم يـدرك الشر ولم يعملـه، قال: «**أو غير ذلك يا عائشـة؟ إن الله عز وجل خلق للجنة أهلاً، خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم، وخلق للنـار أهلاً، خلقهم لها وهم في أصـــــلاب آبائهم**»[1].

ومن أعجب ما ظاهره الرجاء وهو شديد التخويف، قوله تعـالى: ﴿**وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآَمَنَ وَعَمِـلَ صَـالِحًا ثُمَّ اهْتَـدَى**﴾ [طــه: 82] فإنه علق المغفــرة على أربعة شروط، يبعد تصحيحها.

ومن المخوفات قوله تعالى: ﴿**وَالْعَصْـرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ**﴾ [العصــر: 1-2] ثم ذكر بعـــدها أربعة شـــروط، بها يقع الخلاص من الخسران. وقـال تعـالى: ﴿**وَلَوْ شِــئْنَا لَآَتَيْنَا كُـلَّ نَفْسٍ هُـدَاهَا وَلَكِنْ**

1 (?) رواه مسـلم (2662)، والنسـائي (4/ـ 57)، وأبو داود (6713)، وأحمد (6/208).

حَــقَّ الْقَــوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ [السجدة: 13].

ومعلــــوم أنه لو كـــان الأمر مســـتأنفاً لامتـدت الأطمـاع في التحيـل، فأما ما حق في القـــــــدم، فلا يمكن تداركه فليس إلا التسليم، ولولا أن الله تعالى لطف بعارفيه، وروح قلـوبهم بالرجـاء، لاحـترقت من نـار الخوف.

وقـــال أبو الـــدرداء : ما أحد أمن على إيمانه أن يسلبه عند الموت إلا سلبه.

ولما حضـرت سـفيان الثـوري الوفـاة، جعل يبكى، فقـال له رجـل: يا أبا عبد اللـه: أراك كثـير الـذنوب، فرفع شـيئاً من الأرض وقال: والله لـذنوبي أهـون عنـدي من هـذا، ولكن أخاف أن أسلب الإيمان قبل الموت.

وكـان سـهل رحمه الله تعـالى يقـول: المريد يخاف أن يبتلى بالمعاصي، والعارف يخـاف أن يبتلى بـالكفر. ويـروى أن نبيًّا من الأنبياء، شكا إلى الله تعالى الجوع والعري، فـــأوحى الله عز وجل إليــــه: عبدي، أما رضيت أن عصـمت قلبك أن يكفـرني حـتى تسألني الدنيا؟!

فأخذ التراب فوضـعه على رأسه وقـال: بلى قد رضيت، فاعصمني من الكفر.

فإذا كان هذا خـوف العـارفين من سـوء الخاتمة مع رسوخ أقدامهم، فكيف لا يخاف ذلك الضعفاء؟!

سوء الخاتمة

ولسـوء الخاتمة أسـباب تتقـدم على الموت، مثل البدعة، والنفاق، والكـبر، ونحو ذلك من الصفات المذمومـة، ولـذلك اشـتد خوف السلف من النفاق.

قـال بعضـهم: لو أعلم أني بريء من النفـاق، كـان أحب إليَّ مما طلعت عليه الشمس، ولم يريـدوا بـذلك نفـاقَ العقائـد، إنما أرادوا نفـاقَ الأعمـال، كما ورد في الحـديث الصـحيح: «**آية المنـافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلـف، وإذا ائتمن خان**»[1].

وسـوء الخاتمة على رتبـتين: **إحـداهما** أعظم، وهو أن يغلب على القلب -والعيـاذ بالله- شكٌّ، أو جحـود عند سـكرات المـوت وأهواله، فيقتضي ذلك العذاب الدائم.

والثانية دونها، وهى أن يسخط الأقدار، ويتكلم بـالاعتراض، أو يجور في وصـيته، أو يموت مصرًّا على ذنب من الذنوب.

وقد روي أن الشيطان لا يكون في حـال

---

1 (?) رواه البخاري (33)، ومسلم (59)، والترمذي (2633)، والنسائي (8/117).

أشد على ابن آدم من حـال المـوت، يقـول لأعوانه: دونكم هذا، فإنه إن فاتكم اليوم لم تلحقوه.

وقد روى عن النــبي ، أنه كـان يــدعو: «**اللهم إني أعـوذ بك أن يتخبطني**[1] **الشيطان عند الموت»**[2].

قـال الخطـابي: وذلك أن يسـتولي على الإنســان حينئذ فيضـــله ويحـــول بينه وبين التوبـــة، أو يمنعه الخـــروج عن مظلمة أو يُؤْيسه من رحمة الله ويكــره إليه المــوت. فلا يرضى بقضاء الله عز وجل.

والأسباب التي تفضي إلى سـوء الخاتمة لا يمكن انحصــارها على التفصــيل، لكن يمكن الإشارة إلى مجامع ذلك.

أما الختم على الشك والجحـود، فسـببه البدعـــــة، ومعناها أن يعتقد في ذات الله تعالى، أو صفاته، أو أفعاله خلاف الحق، إما تقليــداً، أو برأيه الفاســد، فــإذا انكشف الغطـــاء عند المـــوت، بـــان له بطلان ما

---

1 (?) يتخبطني: تخبطه الشـيطان إذا صـرعه ولعب به. جمع الأصول (4/ 361).

2 (?) رواه أبو داود (1552)، والنسـائي (8/282، 283).

اعتقده، فيظن أن جميع ما اعتقـده هكـذا لا أصل له.

ومن اعتقد في الله سـبحانه وصـفاته اعتقاداً مجملاً على طريق السلف من غـير بحث ولا تنقير، فهو بمعزل عن هـذا الخطر إن شاء الله تعالى.

وأما الختم على المعاصي، فسببه ضعف الإيمـان في الأصـل، وذلك يـورث الانهمـاك في المعاصـي، والمعاصـي مطفئة لنـور الإيمان، وإذا ضعف الإيمان ضـعف حب الله تعالى، فـإذا جـاءت سـكرات المـوت، ازداد ذلك ضعفًا، لاستشـعاره فـراق الـدنيا، فـإن السبب الذي يفضي إلى مثل هـذا الخاتمـة، وهو حب الـدنيا، والركـون إليهـا، مع ضـعف الإيمـان المـوجب لضـعف حب اللـه، فمن وجد في قلبه حب الله تعـالى، أغلب من حب الـدنيا، فهو أبعد من هـذا الخطـر، وكل من مـات على محبة الله تعـالى، قـدم به قـدوم العبد المحسن المشـتاق إلى مـولاه، فلا يخفى ما يلقـاه من الفـرح والسـرور بمجرد القدوم، فضـلاً على ما يسـتحقه من الإكرام.

ومن فارقه الـروح في حـال، خطر بباله فيها الإنكار على الله سـبحانه في فعلـه، أو كـان مصرًّا على مخالفتـه، قـدم على الله قـــدوم من قـــدم به قهـــراً، فلا يخفى ما يستحقه من النكال.

فمن أراد طريق السـلامة، تزحـزح عن أســــــباب الهلاك، على أن العلم بتقليب القلــوب وتغيــير الأحــوال، يقلقل قلــوب الخائفين.

وقد ورد في الصحيحين من حديث سهل بن ســعد، أن رســول الله ﷺ قـــال: «**إن الرجل ليعمل بعمل أهل النـــار، وإنه لمن أهل الجنـــة، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنــــــــة وإنه من أهل النار**»[1].

وروى: «**إن العبد إذا عـــرج بروحه إلى السماء، قالت الملائكة: سـبحان الله! نجا هـذا العبد من الشـيطان: يا ويحه! كيف نجا**»؟!

وإذا عرفت معنى سوء الخاتمـة، فاحـذر

---

[1] (?) رواه البخـــاري (2742، 3966 -ـــ 3970)، ومسلم (112).

أسبابها، وأعد ما يصلح لها، وإياك والتسويف بالاستعداد، فإن العمر قصير، وكل نفس من أنفاسك بمنزلة خاتمتك؛ لأنه يمكن أن تخطف فيه روحك، والإنسان يموت على ما عاش عليه، ويحشر على ما مات عليه.

واعلم: أنه لا يتيسر لك الاستعداد بما يصلح، إلا أن تقنع بما يقيمك، وترفض طلب الفضول، وسنورد عليك من أخبار الخائفين ما نرجو أن يزيل بعض القساوة من قلبك، فإنك متحقق أن الأنبياء والأولياء كانوا أعقل منك، فتفكر في اشتداد خوفهم، لعلك تستعد لنفسك.

من أخبار الخائفين

ذكر خوف الملائكة عليهم السلام:

قال الله تعالى في صفتهم: ﴿**يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ**﴾ [النحل: 50].

وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن لله ملائكة ترعد فرائصهم من مخافته**»[1].

---

1 (?) رواه الخطيب في تاريخ بغداد (10/207).

وبلغنا أن من حملة العــرش من تســيل عينــاه مثل الأنهــار، فــإذا رفع رأسه قــال: ســبحانك ما تخشى حق خشــيتك، فيقــول الله: لكن الذين يحلفون باسمي كـاذبون، لا يعلمون ذلك.

وعن جـابر قـال: قـال رسـول الله : **«لما كـــان ليلة أُســـــرى بي، رأيت جبريل عليه السلام كالشن[1] البالي من خشية الله تعالى»** .

وبلغنا أن جبريل عليه الســلام جــاء إلى النبي وهو يبكي فقال له: « **ما يبكيك؟، قـال: ما جفت لي عين منذ خلق الله جهنم مخافة أن أعصــيه، فليقيــني فيها»[2].**

وعن يزيد الرقاشي قـال: إن لله تعـالى ملائكة حــول العــرش تجــرى أعينهم مثل الأنهــار إلى يــوم القيامــة، يميــدون كأنما تنفضهم الريح من خشيةِ الله تعالى، فيقول لهم الــرب عز وجـل: يا ملائكـتي ما الــذي

---

1 (?) الشـن: القِرْبة الخلق الصـغيرة يكـون المـاء فيها أبرد من غيرها. انظر القاموس المحيط.

2 (?) أورد الحافظ العراقي قريبًا من هذه الأحاديث في تخريجه أحاديث الإحياء انظر (4/181).

يخيفكم وأنتم عندي؟ فيقولــون: يا رب! لو أن أهل الأرض اطلعـوا من عزتك وعظمتك على ما اطلعنا عليه، ما أسـاغوا طعامـاً ولا شراباً، ولا انبسطوا في فرشـهم، ولخرجـوا إلى الصحارى يخورون كما تخور البقر.

وقال محمد بن المنكدر: لما خلقت النار طــارت أفئــدة الملائكة من أماكنهــا، فلما خلق آدم عادت.

وروي أنه لما ظهر من إبليس ما ظهــر، طفق جبريل وميكائيل يبكيـان، فـأوحى الله تعالى إليهمـا: «**ما هذا البكـاء؟ قـالا: يا رب! ما نــأمن من مكـــرك. فقـــال تعالى: هكذا فكونا**».

ذكر خوف الأنبياء عليهم السلام:

قــال وهب: بكى آدم عليه الســلام على الجنة ثلاثمائة عــــــام، وما رفع رأسه إلى السماء بعد ما أصاب الخطيئة.

وقــال وهيب بن الــورد: لما عــاتب الله تعــالى نوحــاً عليه الســلام في ابنه فقــال: ﴿**إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَـاهِلِينَ**﴾ [هــود: 46] بكى ثلاثمائة عــام حــتى صــار تحت عينيه أمثال الجداول من البكاء.

وقال أبو الدرداء : كان يسمع لصدر إبراهيم عليه السلام إذا قام إلى الصلاة أزيز من بعد خوفاً من الله عز وجل.

وقال مجاهد: لما أصاب داود عليه السلام الخطيئة، خر لله ساجداً أربعين يوماً حتى نبت من دموع عينيه من البقل ما غطى رأسه، ثم نادى يا رب: قرح الجبين، وجمدت العين، وداود لم يرجع إليه في خطيئته شيء، فنودي: أجائع أنت فتطعم؟ أم مريض فشفى؟ أم مظلوم فتنصر، فنحب نحيباً هاج كل شيء نبت، فعند ذلك غفر له.

وقيل: كان داود عليه السلام يعوده الناس يظنون أنه مريض، وما به إلا شدة الفرق من الله عز وجل.

وكان عيسى عليه السلام إذا ذكر الموت يقطر جلده دماً. وبكى يحيى بن زكريا عليهما السلام حتى بدت أضراسه، فاتخذت أمه قطعين من لِبُود فألصقتهما بخديه.

ذكر خوف نبينا :

عن عائشة رضي الله عنها قالت: ما رأيت رسول الله قط مستجمعاً ضاحكاً، حتى أرى لهواته[1] إنما كان يبتسم، وكان إذا رأى غيمًا وريحاً عُرف ذلك في وجهه، فقلت: يا رسول الله: الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر، وأراك إذا رأيته عرفت الكراهة في وجهك! فقال: **«يا عائشة: ما يؤمنني أن يكون فيه عذاب؟ قد عذب قوم بالريح، وقد رأى قوم العذاب فقالوا: هذا عارض ممطرنا»**[2].

وكان النبي يصلي ولجوفه أزيز كأزيز المرجل من البكاء[3].

ذكر خوف أصحابه رضي الله عنهم:

روي عن أبى بكر الصديق أنه كان يمسك لسانه ويقول: هذا الذي أوردني الموارد. وقال: يا ليتني كنت شجرة تعضد

---

1 (?) اللهاة : اللحمة المشرفة على الحلق ، وجمعها: لهوات ولهيات .

2 (?) رواه البخاري (4551)، ومسلم (899)، وأبو داود (5098)، والترمذي (3254)، وأحمد (6/66).

3 (?) رواه أبو داود (904)، والنسائي (3/13)، وابن حبان (665).

ثم تؤكـل. وكـذلك قـال طلحة وأبو الـدرداء وأبو ذر رضي الله عنهم.

وكــان عمر بن الخطــاب يســمع آية فيمــرض فيعــاد أيامــاً. وأخذ يومًــا تبنة من الأرض فقال: يـا ليتـني كنت هـذه التبنـة، يا ليتني لم أك شـيئاً مـذكوراً، يا ليت أمي لم تلدني. وكان في وجهه خطان أســودان من البكاء.

وقـــال عثمـــان : وددت أني إذا مت لا أبعث.

وقال أبو عبيدة بن الجـراح : وددت أني كنت كبشــاً فــذبحني أهلي، فـأكلوا لحمي، وحسوا مرقي.

وقـال عمـران بن حصـين: يا ليتني كنت رماداً تذروه الريـاح. وقـال حذيفة : وددت أن لي إنســاناً يكــون في مــالي، ثم أغلق عليَّ بـابي، فلا يـدخل عليَّ أحدٌ حـتى ألحق بالله عزَّ وجل.

وكان مجرى الدموع في خد ابن عباس كالشراك البالي.

وقـالت عائشة رضي الله عنهـا: يا ليتني كنت نسياً منسياً.

وقــال على : والله لقد رأيت أصــحاب محمد فما أرى اليوم شـيئاً يشـبههم. لقد كانوا يصبحون شعثاً غبراً، بين أعينهم أمثال ركب المعـزى، قد بـاتوا لله سـجداً وقيامـاً، يتلــون كتــاب الله تعــالى، يراوحــون بين جباههم وأقدامهم، فإذا أصبحوا فذكروا الله عز وجـل، مـادوا كما يميد الشـجر في يـوم الــريح، وهملت أعينهم حــتى تبل ثيــابهم، والله لكأن القوم باتوا غافلين.

ذكر خوف التابعين ومن بعدهم:

قــال هــرم بن حيــان: وددت والله أني شجرة أكلتـني ناقـة، ثم قـذفتني بعـراً، ولم أكابد الحســاب يــوم القيامــة، إني أخــاف الداهية الكبرى.

وكـان علي بن الحسـين إذا توضأ اصـفَّر وتغبر، فيقال: ما لك؟ فيقـول: أتـدرون بين يدي من أريد أن أقوم؟

وكــان محمد بن واسع يبكي عامة الليل لا يكاد يفتر.

وكان عمر بن عبد العزيز إذا ذكر الموت انتفض انتفـاض الطـير، ويبكي حـتى تجري دموعه على لحيتــــه. وبكى ليلة فبكى أهل

الـــدار، فلما تجلت عنهم العـــبرة قـــالت فاطمــة: بــأبي أنت يا أمــير المؤمــنين مم بكيت؟ قال: ذكرت منصرف القـوم من بين يــدي الله تعـالى، فريق في الجنــة، وفريق في السعير. ثم صرخ وغشي عليه.

ولما أراد المنصـور بيت المقـدس، نـزل بــراهب كــان يــنزل به عمر بن عبد العزيز فقال له: أخبرني بأعجب ما رأيت من عمر. فقـال: بـات ليلة على سـطح غرفـتي هـذه وهو من رخـــام، فـــإذا أنا بمـــاء يقطر من المــيزاب، فصــعدت فــإذا هو ســاجد، وإذا دموع عينه تنحدر من الميزاب.

وقد روي عن عمر بن العزيز وفتح الموصلي أنهما بكيا الدم.

وقـــال إبـــراهيم بن عيسى اليشـــكري: دخلت على رجل بـــــالبحرين قد اعـــــتزال النـاس، وتفـرغ لنفســه، فذاكرته شـيئاً من أمر الآخر، وذكر الموت. قال: فجعل يشهق حتى خرجت نفسه.

وقال مسمع: شهدت عبد الواحد بن زيد وهو يعــظ، فمــات يومئذ في ذلك المجلس أربعة أنفس.

وكان يزيد بن مرشد يبكي كثيراً ويقول: والله لو تواعـــدني ربي أن يســـجنني في الحمـام، لكـان حقي أن لا أفـتر من البكـاء، فكيف وقد تواعـدني أن يسـجنني في النـار إن أنا عصيته؟!

وقال السـري السـقطي: إني لأنظر كل يــوم إلى أنفي مخافة أن يكــون قد اســود وجهي.

فهذه مخاوف الملائكة والأنبياء والعلمـاء والأولياء، ونحن أجـدر بـالخوف منهم، ولكن ليس الخـوف بكـثرة الـذنوب ولكن بصـفاء القلــوب وكمــال المعرفــة، وإنما أمنا لغلبة جهلنا وقــوة قســاوتنا، فــالقلب الصــافي تحركه أدنى مخافـــــة، والقلب الجامد تنبو عنه كل المواعظ.

قـــال بعض الســـلف: قلت لـــراهب: أوصـــني، فقــال: إن اســتطعت أن تكــون بمنزلة رجل قد احتوشـته السـباع والهـوام، فهو خائف حذر يخـاف أن يغفل فيفترسـنه، أو يســهو فينهشــنه، فهو مــذعور فافعــل. قلت: زدني. فقال: الظمآن يجزيه من الماء أيسـره. وما ذكـره هـذا الـراهب من تقـدير

شـــخص احتوشـــته الســـباع والهـــوام، فهو حقيقة في حق المـؤمن، فـإن من نظر إلى باطنه بنـور بصـيرته، رآه مشـحوناً بالسـباع والهـــوام، كالغضـــب، والحقـــد، والحســـد، والكبر، والعجب، والرياء، وغير ذلك، وكلهن ينهشه ويفترســـــنه إن ســـــها عنهن، إلا أنه محجـــوب عن مشـــاهدتها، فـــإذا انكشف الغطـــــاء ووضع في القـــــبر، عاينها متمثلة حيـات وعقـارب يلدغنـه، وإنما هي صـفاته الحاضـــــــرة الآن، فمن أراد أن يقهرها قبل الموت ويقتلها فليفعل، وإلا فليـــوطن نفسه على لدغها لصـميم قلبـه، فضـلاً عن ظـاهر بشرته.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الفهرس